٩- القـــدوة

يعتقد الكثير من الآباء أن الأطفال هم المسؤولون عن تصرفاتهم وسلوكياتهم، وهذا اعتقاد خاطئ؛ فالوالدان هم المسؤولون عنها في المقام الأول، فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، فهذا توضيح وإشارة إلى أن الطفل مثل الورقة البيضاء يكتبها والديه، ولكن لا تكتب بالأقوال وإنما بالأفعال، فابنك يرى الحسن ما تراه حسنًا، ويرى القبيح ما تراه قبيحًا.

فهذا السبب يعد من الأسباب الهامة في اعوجاج أبناء الملتزمين وهو غياب القدوات، فالابن لا يرى إلا قميصا ولحية محفوفة بكسل في الطاعات وغرق في جمع الدنيا، يرى أبًا لا يعطي للدين إلا الفتات من وقته، يرى أمًا أخفت وجهها عن الناس وما أخفت كذبها وغيبتها، يرى تناقضًا في الأقوال والأفعال من والديه أسلبته الثقة فيهم، إلا من رحم الله.

فما العجب في ابن لأب ملتزم وجد أبًا لا يحافظ على الصلاة في أوقاتها، فهو على خطاه يسير؟!

وما العجب في ابن لأب ملتزم يجد أباه متميعًا في حمل أمانة الدين والدعوة إليه من أن يقتفي أثره؟!

ولم السؤال عن بنت لأم ملتزمة حين تجد أمها تتابع المسلسلات والأفلام فهي تتبع نهجها؟!

قالوا عن القدوة:

«القدوة في التربية هي أفضل الوسائل جميعًا وأقربها إلى النجاح، من السهل تأليف كتاب في التربية، ومن السهل تخيل منهج، وإن كان في حاجة إلى إحاطة وبراعة وشمول، ولكن هذا المنهج يظل حبرًا على ورق، معلقًا في الفضاء؛ ما لم يتحول إلى حقيقة واقعية تتحرك في واقع الأرض، ما لم يتحول يترجم سلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادئ المنهج ومعانيه، عندئذ يتحول المنهج إلى حقيقة، يتحول إلى حركة، يتحول إلى تاريخ.

ولقد علم الله سبحانه وهو يضع ذلك المنهج العلوي المعجز أنه لابد من ذلك البشر، لابد من قلب إنسان يحمل المنهج ويحوله إلى حقيقة لكي يعرف الناس أنه حق... ثم يتبعوه.. لابد من قدوة»[(١)].

«إن رحلة تربية الأبناء على النحو الجيد سوف تبدأ من عندنا حين نقرر أن نربي أنفسنا، ونضغط عليها كي نربي أبناءنا، ومن غير هذه العزيمة فإن الخسارة ستكون فادحة!

إن الأمة الفقيرة ليست هي التي لا تملك الكثير من المال، لكنها تلك التي يلتفت أطفالها يمنة ويسرة، فلا يرون إلا النماذج الباهتة، ورجالًا ونساءً من الدرجة الرابعة، وأن الأسرة الفقيرة ليست هي التي تسكن في بيت متواضع، لكنها الأسرة التي لا يرى صغارها في كبارها شيئًا يملأ العين، هذا هو المعيار الأخلاقي والحضاري للغنى والفقر»[(٢)].

(١) «منهج التربية الإسلامية» أ. محمد قطب ص[١٨٠].
(٢) «القواعد العشر» عبد الكريم بكار ص[٣٢].

أهمية القدوة[1]:

١ـ أن القدوة وسيلة من الوسائل التي تربى عليها النبي الكريم لسلوك منهج الدعوة الذي سلكه الأنبياء من قبله، حيث عرضت عليه حياة الأنبياء في قصص القرآن ليقتدي بهم في إبلاغ الرسالة، وقد قال الله: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾.

[الأنعام: ٩٠]

٢- أن الإنسان جُبِل على المحاكاة والتأثر، وفي الوقت نفسه يحب البطولة والكمال، فإذا رأى من ذلك شيئًا كان أوقع في نفسه من الحديث المجرد عن تلك الكمالات والبطولات خاصة في مرحلة المراهقة والشباب، فإنها تشهد قابلية شديدة للاستهواء، «ففي أوقات الشدائد، وعند المحكات والاختبارات، لا يتذكر المربي ما سمعه منك وإنما ما رآه»[2].

(١) مقالة بعنوان «القدوة والاقتداء» يوسف عبد الله العليوي، موقع المربي.

(٢) «سلسلة مهارات المربي» «القدوة»، وليد الرفاعي.

٣- أن القدوة تقنع الآخرين بإمكانية بلوغ الفضائل؛ فربما يتحدث المتحدث عن الفضائل التي ينبغي أن يُتحلى بها، أو المواقف التي ينبغي أن تُوقف فيسمع الناس حديثًا يظنونه من عالم الخيال، ولا يمكن تطبيقه على أرض الواقع فإذا رأوه واقعًا أدركوا بإمكانية بلوغها.

٤ـ أن الفعل أبلغ في إفهام المتلقين من القول المجرد عنه، فإن المتحدث يتحدث الى الناس وهم مختلفة عقولهم في مدى استيعاب الكلام وفهمه، فيخرج السامعون وهم يعبرون عن الكلام حسب ما أدركته عقولهم، ولكن ماذا لو كانوا يرون أمامهم مواقف وأفعالًا؟ أتراهم يخطئون في فهم ما يرونه بأبصارهم وفي نقله؟!

كُن حتى يكون:

«عندما بلغ ابني الخمس سنوات ذهبنا للتسوق وكانت ساحة انتظار السيارات مكتظة جدًّا، فطفنا بسيارتنا لبعض الوقت باحثين عن مكان لنوقف فيه سيارتنا، ومن صفاتي أني صبور في مثل هذه المواقف، وفي النهاية لاحظت سيارة تخرج من مكانها فقمت

بتشغيل إشارتي للدخول في هذا المكان الذي سيفرغ، وإذا بسيارة تتسلل وتحتل هذا المكان وتملكني الغضب الشديد، ففتحت شباك سيارتي وصرخت بألفاظ نابية في وجه السائق، وتبادلنا نظرات تنم عن غضب، ثم واصلت بحثي عن مكان آخر لأوقف فيه سيارتي.

وبعد حوالي عشرين دقيقة، كنا داخل المركز التجاري وقد ذهب غضبي وكنا نناقش بعضنا البعض، وفجأة نظر إلي ابني متسائلًا: بالمناسبة يا أبي، ماذا تعني الكلمات التي تلفظت بها في الخارج؟

وحينها انتابني شعور وكأنني ضربت على رأسي بحجر، ويالها من صدمة غير متوقعة... تملكني الارتباك الشديد وبدأت أوضح له أن هذه الألفاظ ليست بالألفاظ الجيدة»[1].

فهذه قصة نخرج من بين ثناياها أن تصرفاتنا مع أبنائنا موضوعة عندهم تحت المجهر، ولكن هذا الطفل تكلم وصارح أباه، فكم من المرات نكشف أمام أبناءنا بأخطائنا وتساهلنا وتفريطنا وهم

(١) «كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك» سال سيفير ص[٢٣] باختصار وتصرف.

لا يتكلمون؟! فإما أن يأخذوا هذه التصرفات على أنها صحيحة لأن أبي يفعلها وإما يعرف بخطأ هذا التصرف ويبدأ في تكوين صورة ذهنية مشوهة عن الوالد ويرفض الأخذ منه لأن تصرفاته تناقض أقواله.

فكم من ملتزم ينصح ابنه بالزهد في الدنيا وهو يركض فيها ركض الوحوش في البرية؟!

وكم ملتزم ينصح ابنه بالحفاظ على الصلاة في المسجد وهو يضيعها بغير عذر؟!

وكم من ملتزمة تنصح أبناءها بعدم الكذب وهي ما كفَّ لسانها عنه؟!

أما سمعنا قول ربنا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف:٢- ٣].

وقوله أيضًا: ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة:٤٤].

«إن الولد مهما كان استعداده للخير عظيمًا، ومهما كانت فطرته نقية سليمة، فإنه لا يستجيب لمبادئ الخير وأصول التربية الفاضلة ما لم ير المربي ذروة الأخلاق وقمة القيم والمثل العليا، ومن السهل على المربي أن يلقن الولد منهجًا من مناهج التربية، ولكن من الصعوبة بمكان أن يستجيب الولد لهذا المنهج حين يرى من يشرف على تربيته ويقوم على توجيهه غير متحقق بهذا المنهج وغير مطبق لأصوله ومبادئه»[1].

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلّا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يُقبل ماوعظت ويقتدي ... بالعلم منك وينفع التعليم

«لابد وأن تراعي الدقة في سلوكك؛ فالأطفال يكتسبون سلوكهم مما يدور حولهم عندما يعيشون مع آباء ملتزمين، فهم يصبحون أطفالًا ملتزمين وسوف يكونون آباء ملتزمين، أمام

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» عبد الله ناصح علوان (٢/ ٤٦٥).

أحفادك، فأنت ملتزم بأن تكون القدوة الحسنة، فدائمًا ما يكرر الأبناء ما تقوم به من أفعال»[1].

إصلاح الولد الأكبر:

وإلى هنا وصلنا إلى الإشارة الثانية على طريق الاقتداء ألا وهي الولد الأكبر، فالولد الأكبر كالعربة الأولى في القطار إن إعوج، إعوج من بعده.

«وينبغي ألا يغرب عن بال الوالدين أن التركيز على إصلاح ولدهما الأكبر هو من أبرز المؤثرات في إصلاح باقي الأولاد؛ لأن الولد الأصغر يحاكي عادة ما يفعله الأكبر، بل ينظر إليه أنه المثل الأعلى في كل شيء، ويقتبس الكثير والكثير من صفاته الخلقية وعاداته الاجتماعية، وهنا تكون الطامة أكبر إذا وجد الولد من يكبره نشأ في تميع وانحلال، وإذا رأى من وُلِدَ قبله يتقلب في متاهات الرذيلة والفساد، فلا شك أن الأولاد به يتأثرون، وعلى طريقه يمشون، وعنه يأخذون.

(١) «كيف تكون قدوة حسنة لأبنائك؟» سال سيفير ص[٢٦].

فلهذا كله وجب على الأبوين أن يركزوا جهودهم على الولد الأ:بر ثم من يليه، ليكونوا من بعدهم قدوة، وللباقين من الأولاد أسوة، والله يتولى الصالحين»[1].

فمن اللازم أن يأخذ الوالدين في الاعتبار هذه الإشارة، ويهتموا بتربية الولد الأول اهتمام بالغ؛ فإنه إن صلح صلحت بعده باقي الذرية، وإن فسد فلا حول ولا قوة إلا بالله، مع التحفظ أن لكل قاعدة شواذ.

المُربي القدوة:

والإشارة الثالثة على طريق القدوة هي «المربي القدوة»، نعم، إنه مربي المسجد، فكثير من أبناء الملتزمين يذهب إلى المسجد لحفظ القرآن وحضور الحلقات فيظهر دور المربي المكمل للأبوين، ولكن قبل أن نسلم أبناءنا إلى المربي يجب أن يتوافر فيه صفات يتحلى بها وسنركز على سرد الصفات المتعلقة بالقدوة والقابلة لاستقاءها من ناحية الأبناء.

(١) «تربية الأولاد في الإسلام» عبد الله ناصح علوان ص[٤٧٦].

obeikandl.com

١- الجدية وعلو الهمة: فمن مقومات القدوة الحسنة علو الهمة، لذا فيجب على المربي أن يكون ذا عزيمة متوقدة وهمة لا تفتر كي يستقيها المتربي منه دسمة، فيكون من بعده نشيطًا ساعيًا بكل جد، وإلا ما الفائدة إذا رأى شيخه ومربيه يتفنن في تضييع الأوقات، ويبحث عن الكسل؟! فقل على الدنيا السلام، فيجب على المتربي أن يرى مربيه أنه لا يرضى بالدنية ولأن يكون على هامش الحياة بل لابد أن يكون في صلبها، قائدًا وليس مقودًا.

٢- حسن الخلق والدماثة: «المشتغل بالتربية إن لم يكن له نصيب طيب من الخلق الحسن، فلا حظ له في قلوب المتربين ولا مكان له بين المربين الناجحين، فالخلق الحسن من أقوى أساليب التربية المؤثرة، وحسن الخلق زينة المربي، وهو أكثر ما يربي به وأولى ما يربي عليه تلامذته، فإن لم يكن للمربي من حسن الخلق حظ وافر، فعلام يربيهم إذًا؟! ففاقد الشيء لا يعطيه، والمتصنع لحسن الخلق المتكلف به على غير الحقيقة تكشفه طول العشرة وقرب المعاشرة، وما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على قسمات وجهه وفلتات

لسانه»[1]. فالتحلي بالأخلاق الحميدة صفة أساسية يجب توافرها عند المربي خاصة أمهات الأخلاق كالحلم والصدق والوفاء بالوعود والانضباط في الأوقات إلى غير ذلك.

٣- السمت والهدي الحسن: «السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربع وعشرين جزء من النبوة» ففي هذا الحديث تأكيد على أن السمت الحسن من أخلاق النبوة التي كانت بمثابة تأهيل وتربية للأفراد؛ فمن باب أولى أن يتحلى بها الداعية والمربي «فالمربي قدوة بأعماله وسلوكه قبل أن يكون موجهًا للناس بقوله، والفعل يترك أثرًا على النفس أعظم من أثر القول. فقد قال محمد بن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»[2] فما أحوج المربين اليوم إلى تحقيق السمت الحسن والهدي الصالح في نفوسهم» ومن اللطائف التربوية أن الإمام مالك بن أنس قال: «كانت أمي تعلمني وتقول لي: اذهب إلى ربيعة فتعلَّم من أدبه قبل علمه».

(١) «منهاج المربي» محمد عادل ص[١٥٤].

(٢) «مقالات في التربية» د. محمد الدويش.

٤- الانضباط الشرعي: أوصى أحد السلف معلم ولده قائلًا: «لتكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت» لقد بين الوالد لذلك المعلم أثر القدوة على الولد، فكما قال الإمام ابن تيمية للإمام ابن القيم عندما نصحه في ترك بعض المباحات مبينًا له منافاته مع المراتب العالية، فكما قلنا أن المتربين يضعون تصرفات المربي تحت المجهر، فيجب على المربي أن ينضبط في إتباع الشرع فلا يأخذ برخص المذاهب ولا زلات العلماء، وأن يترفع عن بعض المباحات من أجل أن المربي يراه في موضع خاص في نظره دونًا عن الناس، لذا قال ابن القيم: «إن من صعد إلى درجة الورع يترك كثيرًا مما لا بأس به من المباح، اتقاء على صيانته وخوفًا عليها أن يتكدر صفوه، ويطفأ نوره» فيجب أن يكون المربي ممن قال فيهم الله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٠].

هكذا وقفت أمامنا القدوة باكية تحكي قصتها، فآن لنا أن نجبر كسرها ونكفكف دمعها، فمفعولها أشبه بالسحر وأثرها يُحفَر

في العقل كأثر النقش على الصخر، فيا أهلًا بالفعل والعمل، ويا بعدًا بالثرثرة والكلام، حقًا «إن رحلة تربية الأبناء على النحو الجيد سوف تبدأ من عندنا حين نقرر أن نربي أنفسنا، ونضغط عليها كي نربي أبناءنا، ومن غير هذه العزيمة، فإن الخسارة ستكون فادحة»[1].

❁❁❁

(١) «القواعد العشر» عبد الكريم بكار ص[٣٢].

obeikandl.com